الألفاظ التراثية و التعريب في عصرنا الحاضر

د. عبد الرحمن الحاج صالح (*)

لقد نادى كثير من العلماء، منذ زمان غير بعيد، إلى الرجوع إلى التراث العربي واعتماده بكيفية منتظمة كلما احتيج إلى مصطلح علمي أو لفظ حضاري يدل على ما يقارب المسمى المحدث في زماننا هذا. و قد حصل ذلك بالفعل في القرن الماضي عندما أمر السياسيون، آنذاك، بأن تنقل الكتب العلمية الغربية إلى العربية، وخاصة في الطب والرياضيات، ونخص بالذكر تلك الحركة العظيمة التي أحيت في مصر العدد الكبير من المصطلحات العلمية التراثية عند ترجمتها للكتب الأوربية. إلا أن هذا العمل ينبغي أن ينسجم، في وقتنا هذا، مع ما طرأ من تقنيات جديدة في التوثيق و المعلومات عامة.و لا يُعقل أن يواصل اللغويون أعمالهم بالكيفية الحِرَفية الفردية التي عُرفوا بها إلى الآن.وما يقال عن المصطلحات العلمية و التقنية يقال أيضاً عن ألفاظ الحضارة، فالكثير من تلك الألفاظ تدل على ما يقارب تماماً المسميات الحديثة، و قد أحيا بعض الكتّاب شيئاً منها.

– مزاعم اللسانيين التاريخيين و البنويين المحدثين

قد يعرف الكثير من المثقفين ما كان يدّعيه بعض اللغويين الغربيين، في القرن الماضي إلى النصف الأول من هذا القرن، من الحتمية المطلقة لظاهرة التحوّل التي تصاب به اللغات عبر الزمان وأن خطأ اليوم قد يصبح صواب الغد. أما اقتباس الناطقين لكلمات أجنبية فهو أمر مطرد لا يمكن أن يعارض أبداً. و كل اللغات في الدنيا تفعل ذلك. إن هذا كله صحيح في مجمله فلا يمكن أن يعارض التحوّل عبر الزمان للغات البشر، فالتحول[1] حاصل مهما أردنا أو فعلنا. وكذلك هي ظاهرة الدخيل: لا مفر منه.إلا أن كل هذا وإن كان صحيحاً في جوهره إلا أنه ليس أمراً مطلقاً يحصل في جميع الأحوال لأن هناك ظواهر أخرى (لا تقلّ طبيعتها عن الأولى) لا تعارض تماما نزعة التغيّر الزماني ولكن قد توقفه إلى حدّ بعيد، وكذلك فيما يخص الاقتباس. ثم إن هناك شروطاً لتحقق التغير، فإن اللغة المنطوقة أو لغة التخاطب اليومي هي التي تسرع إلى الاستحالة أكثر بكثير من لغة التحرير، ثم هناك ظروف اجتماعية تاريخية خاصة تسهّل هذا التغيّر وهي اتصال الشعوب عن كثب كالغزوات و الحروب و التجارة. فقد تغيّرت الفرنسية القديمة حتى صارت الفرنسية الحديثة، و هي مختلفة عنها تماماً، في ظرف مائة سنة في أثناء الحرب التي تحمل هذا الاسم.

هذا وليس بصحيح أن لا يكون للنحاة و اللغويين و الكُتّاب أي تأثير في اللغة وفي استعمال الناس للغة. فقد حاول ذلك النحاة الفرنسيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر فنجحوا أيما نجاح. وكذلك فعل النحاة الهنود، ثم العلماء العرب، وهكذا حافظ المسلمون على اللغة العربية، لغة القرآن، فصارت لغة

(*) مدير مركز البحوث في اللغة العربية ورئيس المجمع الجزائري للغة العربية

مشتركة، ولولا هذا التدخل البشري لما بقي للعربية أثر اليوم وقد صارت فوق اللهجات التي أصبحت متباينة اليوم، لأنها تحوّلت مع الزمان منعزلة بعضها عن بعض. و هو السبب الأعظم في اختلافها الشديد.أما السبب الثاني في الاختلاف الكبير بين الفصحى واللهجات فهو في اختلاط العربي بالأعجمي، كما هو معروف، ولكن هو أيضا في بقاء الكثير من العرب على أُمّيتهم و تحوّل لغة التخاطب الفصيحة القديمة إلى ما سموه بالعامية، نسبة إلى غير المثقفين ثم انتشار هذه الأمية إلى أبعد حدّ بعد جمود الفكر العربي وتسلط الاستعمار عليهم . أما وجود الفرق الملموس بين لغة الثقافة ولغة التخاطب فهذا شيء مشترك بين جميع اللغات إلا أن انتشار الأمية قد يجعل هذا الفرق كبيرًا جداً.

أما الاقتباس اللغوي، فالذي ندعو إليه هو موقف وسط لا تفريط فيه و لا إفراط، فنحن نرى أنه لا فائدة في معارضة اللفظة الدخيلة، إذا كانت لها هالة من الهيبة والنفوذ فوقها، وذلك مثل كلمة "إلكترون" وقد اقترحوا كلمة "كهروب"في مكان "إلكترون" (وهو أيضاً معرب) فكيف يمكن أن تنافسها وقد يحس الناطق بما التصق بهذه الكلمة من المفاهيم العجيبة. وقس على ذلك الكثير من الكلمات مثل "التكنولوجيا" (في مقابل التقانة). إلا أن ذلك لا ينطبق على جميع الألفاظ الحديثة المعربة لاختلاف درجة نفوذها وإشعاعها.ومن المعروف أن لغة التخاطب في جميع اللغات البشرية هي أكثر إقبالاً على الاقتباس فلا ينبغي أن يقاس عليها مع الاعتقاد كما يقوله الغلاة من اللغويين الوصفيين، أن "الأصل في كل شيء هو المنطوق". نعم يجب الرجوع إلى المنطوق والمكتوب، للتحقق من انتشار الكلمة أو العبارة وشيوعها ولتقويم الألسنة من الخطأ، كما يرجع إلى المنطوق في البحوث العلمية. وكان المنطوق هو الأصل في العربية يوم كانت السليقة في الفصحى قائمة.

و على هذا فما يمنعنا أن نبحث عن كلمة عربية في التراث قريبة المعنى من المفهوم المحدث، أو نلجأ إلى الاشتقاق وغيره من وسائل الوضع اللغوي مادامت الكلمة الأجنبية لم تحظ بعد في جميع البلدان العربية و في أوسع نطاق بتلك الهالة من النفوذ وقوة الإيحاء للمفهوم.

– استعمال اللغة الحقيقي و قوانينه

إن للاستعمال اللغوي أسراراً وقوانين خاصة به غير قوانين اللغة في ذاتها وقد لا يهتم بها اللغويون في وقتنا الحاضر، بل قد يتجاهلونها، وأكبر مثال على ذلك هو عمل المجامع قبل اليوم فقد كان بعض المجمعيين يضعون الألفاظ –أو يحاولون إحياء بعضها–دون أي اهتمام بما سيكون مدى قبول المجتمع لها. و من المعروف أن الكلمة المتنافرة الحروف لا تنتشر بين الناطقين وتبقى غريبة وحشية وقد لاحَظ ذلك علماؤنا القدامى.

وقد يعتقد بعضهم أن وجود اللفظة في القواميس القديمة دليل على وجودها على الكثير من الألسنة قديماً. فقد حاولوا إحياء كلمة مثل"المطّة"(مضرب للكرة) وكلمة "إرزيز" فكيف يُقبِل الناس على ما لم يكن له إقبال عليه قديماً (عدم وجودها بكثرة في النصوص القديمة دليل على عدم رواجها). ثم قد تكون الكلمة مثيرة للضحك (أو مثيرة لبعض الأفكار السيئة أو المشؤوم منها) وذلك مثل كلمة "مشطور" التي اقترحت للسندويتش وأما "الشطيرة" فلم يردّها أحد لأنها جاءت على وزن يوحي إلى المفهوم الحقيقي.فالرجوع إلى

التراث هو شيء طبيعي تفعله جميع الشعوب وخاصة شعوب أروبا[2]. فللعربية تراث حضاري ربما لا تُضاهيها في ذلك أية لغة في الدنيا. ومعاجم العربية وحدها تزخر بالآلاف من الألفاظ الحضارية يمكن استرجاعها و إدخالها في الاستعمال من جديد، وقد حصل ذلك بالفعل حتى دخلت بعض الكلمات التراثية في لغة التخاطب، مثل الندوة والمؤتمر وانعقاد الاجتماع ورفع الجلسة والبريد. ومن ذلك أحيوا كلمات كثيرة جداً وخصصوها لمسمى جديد كالباخرة و السيارة و الهاتف (وقد نجدها عند الكثير من المثقفين)والطيارة والربان والقطار (وقامت مقام "الوابور" في مصر مع شيء من التكييف).

و توجد في المعاجم العربية الكبرى، مثل لسان العرب، والتاج، وتهذيب اللغة، والمخصص لابن سيده، ثروة لغوية لا يوجد مثلها في أية لغة اللهم إلا في زماننا هذا في الإنكليزية العلمية والتقنية.ففيه ما يغطي الكثير من المفاهيم الحضارية،والغريب أن هذه الألفاظ لا نجدها غالباً في القواميس الحديثة المزدوجة اللغة. وها هي ذي عينة صغيرة مما يمكن أن يقابل المفهوم باللغات الأجنبية: ففي ميدان جسم الإنسان وأوصافه وعلله، يوجد ما يفوق عدد الألفاظ الأجنبية، فليس من مكان –أياً كان–في جسم الآدميين (أينما وضعت إصبعك في الظاهر أو الباطن) إلا وله اسم في العربية، وأي فعل أو حركة جسمية فلها اسم، وأي لون في الدنيا مهما كان فله اسم . أما الرياضة البدنية فكذلك هناك ألفاظ متنوعة لضربات الملاكم، و أسماء أخرى لمضرب الكرة، وأخرى لأنواع اللعب بها، و أنواع السباحة، و الملاحة وأدواتها، وكان الملاحون العرب يعرفون السلوقية (Cabin de pilotage)، والشرَعة(pont)، والطارقة أوالرفرف (couchette)، والحُنّ(cale)والمَمْرَق والقَمْرية(hublot) وغير ذلك، والكلاّء :مرفأ السفن (mole)، وكذلك أنواع الطيران مثل: الرفرفة(تحريك الجناحين في الطيران)، و الاستشاطة و الإسفاف (rase motte) والدفيف(إذا حرَّك جناحيه بالأرض)، و الصفيف (إذا بسط جناحيه و سكنهما)، و الزفيف (piqué)، و الكسر(إذا ضم جَناحيه وأراد الوقوعَ)، وغير ذلك كثير.

وهناك من الأسماء لأنواع الزحافات و القردة وغير ذلك كثير، فالقرد الضخم مثل الغوريلا يسمى القدوح، والحرذون العظيم القديم يسمى الضفطار وهومثل iguane ، والعُدْمُل : كل قديم ضخم من الضباب ويمكن أن يطلق على dinosaure أو نوع منه.

و في تزيين السيدة، فهناك التسريح و التجمير (chignon sur la tête) والتغمير والتحمير (maquillage) والدرّامة (lime à ongle) و التطريف (manucure) وغيرذلك. وكذلك ما يخص المسكن وأجزاءه فهناك الروشن (veranda)، و العريش (pergola)،والمستشرَف(terrasse)،والسمّان (lambris) والحِلْس (moquette)، والهَدُوج (cocotte minute)، و غير ذلك.

وقد يمكن أن يقول قائل بأن هذه الألفاظ، وإن كانت قد استعملت قديماً بمعنى قريب، فانها قد خرجت من الاستعمال و تُركت. وهذا صحيح ولكن ما المانع أن نحاول إدخالها في التعليم – الابتدائي خاصة – بإدراجها في الكتب المدرسية، بل بوضع قاموس مدرسي مصور تسدّ فيه كل الثغرات المعجمية وتدرج فيه كل ما

تمّ إقراره من قبل العلماء في داخل المجامع. و ما المانع أن نحاول إدراجها في كل ما يلقى من حديث ومحاضرة وأنباء وتمثيليات عربية وأجنبية معربة تذاع في الإذاعة والتلفزة. وكل يعرف ما لوسائل الإعلام والمدرسة من تأثير عميق وواسع في لغة المستمعين كتشهير الأخطاء اللغوية أو الكلمات الجديدة و غير ذلك .و أكبر دليل على ذلك ما قامت به بلدان المغرب العربي من تجربة لغوية في ضبطها لما كان يسمى بالرصيد اللغوي المغربي فأدخلت الجزائر عدداً كبيراً من هذا الرصيد وصار الأطفال في الجزائر اليوم يعرفون ويستعملون في مخاطباتهم كلمة اللُّمْحة (لما يتعلّل به الأطفال وهم في المدرسة= goûter)وكلمة المَعامة (المايو) وتوت الأرض (الفريز) وغير ذلك وتعلّم منهم أولياؤهم هذه الكلمات.

هذا ما يوجد في المعاجم ولا بد من مسحها مسحاً كاملاً منتظماً للعثور على مثل هذه الألفاظ. إلا أن القواميس ليست هي كل التراث مهما عظم ما تحتوي عليه. ثم إننا لا يمكن أن نعرف إن كانت الكلمة قد استعملت في نطاق واسع أو كانت قليلة الورود غير معروفة عند الأكثر بل عند القليل من العرب.و لم يحاول إلى الآن أي واحد من الباحثين في اللغة أن يقوم بمسح شامل لعدد من الكتب الحضارية القديمة مثل كتب الجاحظ أو كتاب الأغاني وغيرهما لضخامة العمل فهو فوق جهد الفرد الواحد بل المؤسسة الواحدة.

وهذا ما حملنا على اقتراح مشروع كبير ذي الخطورة العظيمة و هو مشروع الذخيرة اللغوية العربية أو الإنترنيت اللغوي العربي، وكنا قد اقترحناه على المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (في ديسمبر1987). فتبناه المجلس التنفيذي، آنذاك، وطلب أن تحدد تكاليف تغطيته من جهة الإشراف فلم يتم ذلك إلى الآن. كما رحّب اتحاد المجامع به في 1998 وكرر ذلك في 1999 ثم لا شيء.

فما هو المقصود من الإنترنيت اللغوية العربية أو الذخيرة اللغوية. لقد سبق أن قلنا في مقدمة المشروع:

إن هذا المشروع نشأ من فكرة الاستعانة بالحاسوب (الكومبيوتر) واستغلال سرعته الهائلة في علاج المعطيات وقدرته العجيبة على تخزين آلاف الملايين من هذه المعطيات في ذاكرته، لإنشاء بنك آلي من المعطيات يحتوي على أهم ما حرّر بالعربية مما له قيمة علمية وأدبية وتاريخية وغيرها، وأعزّما أنتجه الفكر العربي قديماً وحديثاً وما سينتجه على مرّ السنين.

وسيكون هذا البنك الآلي تحت تصرف أي باحث في أي مكان في العالم، فيمكنه أن يسأل الحاسوب متى ما كان عما يشأ من المعلومات فيجيبه بسرعة الضوء.

ونحن نعرف أن الباحث- واللغوي خاصة - قد يقضي الشهور، بل و السنين الطوال، في قراءة الأسفار الكثيرة من الكتب حتى يعثر على بغيته.

وقد شرعت بعض المؤسسات العربية في تخزين بعض النصوص وذلك مثل القرآن الكريم وكتب الحديث و الشعر الجاهلي. فالذي نرجوه هو أن يعمم ذلك على نطاق واسع في الوطن العربي.

فالذخيرة اللغوية العربية هي إذن **بنك آلي من النصوص** القديمة و الحديثة (من الجاهلية إلى وقتنا الحاضر).و أهم صفة تتصف بها سهولة حصول الباحث على ما يريد وسرعته ثم شمولية المعلومات التي يمكن أن

يتحصل عليها، وأهم من هذا أيضا هو اشتمالها **على الاستعمال الحقيقي** للغة العربية عبر العصور وعبر البلدان العربية المختلفة.

ماهي الفوائد الملموسة التي يمكن أن نستفيدها من الذخيرة الآلية ؟

بالنسبة لمجامع اللغة و المؤسسات العلمية العربية، وما تضعه من المصطلحات العلمية على مرّ الأيام، ففوائد هذه الذخيرة كثيرة نذكر منها:

1- الاعتماد في وضع المصطلحات والبحث عنها على كل المعطيات اللغوية في ميدان معين من واقع الاستعمال للّغة العربية قديماً كان أو حديثاً.

فالمختص الذي قد يحتاج إلى أن يضع مصطلحاً معيناً لا يجده فيما لديه من المراجع لمفهوم معيّن، فتجعل الذخيرة أمامه في بضع ثوان كل الألفاظ التي **استعملت** عبر العصور أو تستعمل الآن **بالفعل** عبر البلدان من تلك التي ينتمي إليها ذلك المفهوم، فهولا يرجع بذلك إلى القواميس وقوائم المصطلحات التي اقترحت فقط (وربما لم تدخل بعد في الاستعمال) بل إلى **الاستعمال الحقيقي** في شتى البلدان العربية.

2- الاعتماد في اختيار اللفظ على مقياس الشيوع والدقة في دلالة المعنى المراد.

ويستطيع المتخصص، أيضاً، أن يعرف مع ذلك درجة شيوع هذه الألفاظ، قديماً و حديثاً، ثم يعرف مدلولها الحقيقي لا من التحديدات فقط بل من جميع السياقات التي وردت فيها في الاستعمال وهي أمثل الطرق لتحديد معاني الألفاظ وأكثرها موضوعية. و فوق كل هذا فإنه يحصل على كل هذا في بضع دقائق !

3 – الاعتماد على هذا البنك النصي الآلي في البحث عن التطور الدلالي للألفاظ العربية و من ثم إمكانية وضع معجم تاريخي دقيق للغة العربية.

4- إمكانية فهرسة، بكيفية آلية، لكل النصوص العربية ذات القيمة العلمية والأدبية مما طبع وما سيطبع وينشر على مستوى الوطن العربي (المصطلحات ، الألفاظ الحضارية، بيان تردّد كل لفظة في النص الواحد، الأعلام، و غير ذلك).

5- إمكانية وضع معجم شامل للغة العربية المستعملة بالفعل، تخصص لكل مدخل دراسة لغوية دقيقة و غير ذلك من الفوائد.

أما مقاييس وضع المصطلح و إقراره، فأول ما يجب على واضع المصطلح أن يفعله هو أن يطرح على نفسه و على زملائه هذا السؤال الوجيه: هل عرف العلماء قديماً هذا المفهوم أو ما يقرب منه و ما هو المصطلح الذي استعملوه بالفعل للدلالة عليه؟فإن كان الجواب بنعم فينبغي أن ينظر في جميع سياقات هذا اللفظ القديم في مصدر معروف أو أكثر من مصدر ويستنتج من ذلك المعنى المقصود من استعمالهم له فإن طابق المفهوم الحديث فبها ونعمت، و هذا ما فعله علماء القرن التاسع عشر، الذين أشرنا إليهم في أول هذا المقال، فأحيوا كل المصطلحات الخاصة بالرياضيات والفيزياء و الطب وغيرها من العلوم، و الأمثلة كثيرة جداً بالنسبة لهذه الحالة، أي عند اتفاق المفهومين، ولنأخذ مثال الصوتيات فهناك مفاهيم علمية كثيرة لا يمكن أن يختلف التصوّر الموضوعي فيها اختلافاً كلياً بين أمـــة وأخرى وذلك مثل أسماء الأعضاء الصائتة .إنمـــا

المطلوب من الواضع هو أن يعتمد على بحوث دقيقة تبين هذا الاختلاف في التصور (مصدر الصوت الحنجري ومفهوم الصدى ومعنى أقصى الحلق وغير ذلك)[4].ومفهوم الصوت بالنسبة للحرف ومعنى التقابل بين الجانب اللفظي و الجانب الأدائي و غير ذلك.وقد يكون هناك،كاتفاق تام في التصور مثل مفهوم الصفات المميزة ومفهوم الfeatures و المخرج ومفهوم lieu d'articulation وغير ذلك. فلماذا يترجم المصطلح الإنكليزي بالملامح !؟ والحرف الذي يخرج بين الأسنان هو اللثوي لا محالة وإن كانت التسمية تدل على غير ذلك في الأصل، إلا أن المقصود عند الصوتيين العرب هو الـ Interdentale و يفسرون التسمية بالجوار(انظر المحاذي لابن عبد السلام الفاسي). وليس ههنا أي مشكل إنما المشكل هو في حداثة المفاهيم ومن ثَـمّ في استحالة مطابقة المفهوم الحديث للمعنى الذي قصده العلماء في القديم في استعمالهم لمصطلح معين.فلا بد، حينئذ، من وضع لفظ جديد (لمفهوم جديد).أما الواضعون المشار إليهم و المجامع العربية الحديثة، في أول نشأتها، فكانوا بعد تحققهم من عدم وجود المفهوم عند القدماء (وربما يحق لهم الشك في ذلك)، يبحثون عن الألفاظ - أو الجذور- التي تدل على معنى عام يمكن أن يحتوي على جانب من المفهوم الخاص، ويبحثون في الوقت نفسه عن صيغة تدل من جهة أخرى على جانب آخر من المفهوم؛ وذلك لأن للغة العربية مَوَادَّ وصيغاً، كما هو معروف، أما اللواحق و السوابق فهي جزء من الصيغة في الأكثر خلافاً للغات الأوروبية في الغالب.

والذي نحتاج إليه هو مواصلة ما بدأ فيه علماؤنا قديماً وهو الحصر التام لمعاني الصيغ وذلك بالاعتماد على استقراء كل معاني المشتقات التي هي من أصل واحد.

هذا وقد اقترحنا، قديماً و اقترح الكثير من الإخوان، بعض القواعد لاختيار اللفظ المناسب فهذا اللفظ يجب أن تكون له الصفات اللازمة لإقبال الناس[5] عليه. وقد سبق أن قلنا إن اللفظ الموضوع إذا دلّ على معنى محظور؛ أي ما يشمئز منه الناطق أو تتنافر حروفه حتى يكون مكلّفاً جهوداً غير طبيعية، فإنه لا يدخل في الاستعمال أو يبقى غريباً لا تعرفه عامة المثقفين، و قد أشار إليه القدامى في تصحيحهم للألفاظ. أما الغرابة في أول الوضع فهو شيء غير وارد لأن كل ما يوضع من لفظ فهو طارئ على الاستعمال غريب عند الناس وهذا لا يمنع من أن يشيع إذا كانت قد تبنته المدرسة ووسائل الإعلام. فإن نحن انتظرنا أن يدخل اللفظ في الاستعمال هكذا بدون تدخل منا فسيبقى حبراً على ورق، والكثير مما وضعه الأفراد أو المجامع بقي بعيداً عن الاستعمال حتى عند أهل الاختصاص لانزوائه في مقالة أو بحث أو في قائمة من المصطلحات ولا تسنده المدرسة والجامعة ولا وسائل الإعلام. والذي نتمناه هو أن يتخذ المسؤولون الكبار على مستوى جامعة الدول العربية قراراً خطيراً وهو إدخال كل ما تقره المجامع العربية بعد الاتفاق عليه في هاتين البؤرتين العظيمتين من الإشعاع والنفوذ ألا وهما المؤسسات التعليمية من جهة و الإذاعة والتلفزة و الصحافة من جهة أخرى.

الهوامـــش

1. وكان يسميه اللغويون تطوراً، تأثراً بنظرية دورين، حيـــث طبقوا على اللغة ما كان يراه صالحاً للأحياء ولذلك قالوا: " اللغة كائن حي" وهو تشبيه ليس غير.
2. فاللغات الأوروبية تأخذ جـــذور مصـــطلحاتها و ســـوابقها ولواحقها من اللاتينية و اليونانية، غالباً، و قد وضعوا قاموساً لهذه اللواحق والسوابق يتصرف فيها العلماء و المختصـــون لوضع مصطلحاتهم ولها قواعد في كيفية استعمالها و قد وقع في ذلك اتفاق عجيب بينهم.